الفصل الخامس

حوار مع الماضى البعيد

- دور القيم فى الحضارة المصرية القديمة
- عودة الوعى الحضارى
- قيمة الانتماء

obeikandl.com

obeikandl.com

دور القيم فى الحضارة المصرية القديمة[1]

تُعَدُّ القيمُ فى كل مجتمع معايير للسلوك الإنسانى . والمجتمع المتوازن هو ذلك المجتمع الذى ينتشر فيه الوعى بالقيم ، ومن ثم الالتزام بها . ويرتبط بازدياد الوعى بالقيم والإحساس بها مفاهيم التقدم والتفاؤل والنظام والترابط .

والأمر الذى لا جدال فيه أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش فى مجتمع دون قيم تحكم سلوكه على المستوى الفردى والاجتماعى ، بل وتحكم سلوكه إزاء الكائنات جميعًا . وهذا يؤكد أن الإنسان يعد كائنًا أخلاقيًا لديه بالفطرة ضمير يلزمه بالسلوك الأخلاقى ، باستثناء من فسدت فطرتهم ، وصموا آذانهم وعقولهم عن صوت الضمير . فهؤلاء من الشواذ الذين لا يمثلون النوع الإنسانى ، ولا يؤثر وجودهم فى جعلنا نفقد ثقتنا فى الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم من الناحيتين المادية والمعنوية .

ومن الحقائق الواضحة أن منظومة القيم الأخلاقية لها جذورها الضاربة فى أعماق النفس البشرية لدى الشعوب المختلفة منذ آدم حتى يومنا هذا وإلى أن تقوم الساعة . فلا خلاف على أن الصدق والأمانة والعدل والإحسان إلى الوالدين من الفضائل التى ينبغى على الإنسان أن يلتزم بها ، وأن ما يقابلها من الكذب والخيانة والظلم وعقوق الوالدين من الرذائل التى ينبغى على الإنسان أن ينأى بنفسه عنها . وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على ثبات القيم على الرغم من اختلاف تصورات الأجيال فى النظر إليها .

والأمر الجدير بالتأمل والاعتبار أن مصر - صاحبة الحضارة العريقة - قد عرفت القيم بصورة واضحة تمامًا قبل أن تعرف تعاليم الأديان السماوية . وهذا يدل

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ١/ ١٢/ ٢٠٠٧ .

من ناحية على أن القيم فطرية فى النفس البشرية قد زود بها الإنسان عند خلقه ، وأن الطبيعة الإنسانية فى أصل فطرتها طبيعة خيِّرة وليست شريرة . فالأصل هو الخير والشر طارئ عليه . ومن أجل ذلك فإن الخير سيظل موجودًا فى العالم على الرغم من طغيان الشرِّ . فالشرُّ مهما كانت سطوته لن يستطيع أن يمحو الخير من الوجود لأنه أصل الطبيعة الإنسانية .

ومن ناحية أخرى يدلنا توصل المصريين القدماء إلى التعرف بصورة كاملة على القيم على مدى التقدم الرائع لديهم فى هذا المجال ، الأمر الذى كان له أثره العظيم فى مساعدتهم على البناء الحضارى الشامخ الذى يعرفه التاريخ . فالحضارة ليست فقط أبنية شاهقة أو تقدمًا فى المجال المادى ، وإنما هى - قبل كل ذلك - تقدم أخلاقى من شأنه أن يدفع إلى التقدم فى كل المجالات الأخرى فى الحياة . وهذا يعنى أنه كلما ازداد الإحساس بالقيم والوعى بها كان ذلك دافعًا إلى الصعود قدمًا فى درجات التحضُّر والرُّقىِّ .

ومن خلال تصفحنا لما ورد عن قدماء المصريين فى هذا الصدد نجد أنفسنا نقف إجلالاً وإكبارًا لأسلافنا العظام الذين كانوا حريصين كل الحرص على القيم الأخلاقية والاجتماعية . وإن نظرة سريعة على ما جاء - على سبيل المثال - فى « كتاب الموتى » الفرعونى المأخوذ عن «بردية آنى » - التى لا تزال موجودة بالمتحف البريطانى والتى تشتمل على اثنين وأربعين بندًا - نجد منظومة أخلاقية متكاملة شملت كل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والدينية . ومن هذه المنظومة نقتطف بعض ما جاء فيها لنتذكر مفاخر أسلافنا من ناحية ، ولنعتبر بما جاء فى هذه المقتطفات من ناحية أخرى .

يقول « آنى » معبِّرًا عن هذه القيم والحفاظ عليها فى دفاع الميت عن نفسه فى العالم الآخر أمام الآلهة الذين يقطنون قاعة العدل والحق : إنى لم أرتكب إثمًا ولم أسرق ، ولم أقتل ، ولم أنطق بالأكاذيب ، ولم أُسبِّب ألمًا أو حزنًا أو بكاءً لأحد ، ولم أرتكب الزنا ، ولم أتعامل بخبث ، ولم أرتكب الغش ، ولم أتسبب فى خراب أرض

محروثة ، ولم أتلصص على أحد أو أرتكب نميمة ، ولم أكن حانقًا غاضبًا إلا من أجل الحق ، ولم أغرر بزوجة إنسان ، ولم أدنِّس نفسى أو أسبِّب الرعب لإنسان ، ولم أرتكب الفُحشَ ، ولم أصم أذنى عن كلمات الحق والعدل ، ولم أمارس الكبرياء ، ولم أشعل نيران خصام أو عراك ، ولم أحكم دون روية ، ولم أسع فى وشاية ، ولم أضخم الكلمات ، ولم ألوث أبدًا المياه ، ولم أنطق باستهزاء ، ولم أحرم الرضيع طعامه .

وفى بردية أخرى يقول « نو » : لم أعامل الخدم بسوء ولم أسمح بضرر يقع على خادم ممن يعلوه ، ولم أسبب تعاسة لأحد ، ولم أسلب المظلوم ما يملك ، ولم أتسبب فى ألم ، ولم أجعل أحدًا يشعر بالجوع ، ولم أقتل ولا أمرت بالقتل لحسابى ، ولم أرتكب الزنا ، ولم أدنس نفسى ، ولم أزد ولم أنقص شبرًا من الأرض ، ولم أستول على حقول الآخرين ، ولم أغش فى الكيل ولم أطفف فى الميزان ، ولم أطرد قطيعًا من مراعيه ، ولم أحول مياه الرى فى موسمها ، ولم أخرِّب قنوات المياه الجارية .

وفى بردية « نو » - أيضًا - من خطاب إلى آلهة العالم السفلى نقرأ : لقد أعطيت الخبز للجوعى والماء للعطشى والكساء للعرايا وزورقًا لمن تحطمت مراكبهم .. إلخ. وفى بردية نبسنى « الناطق بالحق » تتردد نفس المعانى فى اثنين وأربعين بندًا . ومن الملاحظ أن عدد هذه البنود يتفق مع عدد الآلهة الاثنين والأربعين الموجَّه إليهم الخطاب والجالسين فى قاعة العدل . وفى كل هذه البرديات تأكيد على احترام المقدسات الدينية والحفاظ عليها وعدم تدنيسها بأى شكل من الأشكال .

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مدى الإحساس الخُلُقى المرهف والإدراك الواعى للقيم الأخلاقية وأهميتها فى حياة الأفراد والجماعات . وحين نطالع ذلك فإننا نشعر أن هؤلاء الذين قالوا ذلك منذ آلاف السنين كأنهم لا يزالون يعيشون بيننا الآن ، يشاركوننا الرؤية ذاتها التى ننظر بها إلى القيم الأخلاقية . فالإنسان هو الإنسان فى كل العصور بصرف النظر عن تغير الأحوال والظروف . وهذا يدل على أن القيم الأخلاقية ثابتة لا تتغير بتغيُّر الزمان والمكان . فالفضيلة لا يمكن أن تنقلب إلى رذيلة ، والخير لا يمكن أن ينقلب إلى شر . فنحن مهما تغيَّرت وجهات نظرنا وتصوُّرنا للناس والأشياء فإن هناك ثوابت فى حياتنا ومن بينها « القيم الأخلاقية » .

والأمر الذى نود أن نؤكد عليه فى هذا الصدد هو الارتباط الوثيق بين الرقى المادى والرقى الأخلاقى فى الحضارة المصرية القديمة . فالبناء المادى يحتاج إلى الإخلاص فى العمل والإتقان فيه والأمانة فى التنفيذ والصدق فى القول والعمل والبُعد عن الغش والتزوير وبصفة عامة يحتاج إلى المسئولية بأوسع معانيها . ومن هنا فإن المجتمع الواعى المدرك للمسئولية الإنسانية سيصل حتمًا إلى تحقيق الآمال والطموحات ، ليس فقط على المستوى الشخصى وإنما أيضًا على المستوى العام . والمصريون القدماء قد استطاعوا أن يبدعوا فى كل المجالات انطلاقًا من هذا الشعور الواعى بالمسئولية .

والسؤال هو : إذا كان هذا هو شأن المصرى القديم الذى ترك لنا آثارًا خالدة تدل على إبداعاته فى كل مجالات العلوم والفنون فما لنا نحن الأحفاد قد توقفنا ؟ هل اختلفت الجينات بمرور الزمن وأصابها الضمور فتوقف الإبداع ؟ إن أمامنا القدوة ماثلة أمام الأعين فلماذا لا نراها ؟ وفى هذا المقام يحضرنى سؤال وجهه لى صديق ألمانى عاشق للحضارة المصرية القديمة . فقد سألنى : هل المواطن المصرى على وعى بهذه الحضارة وإنجازاتها الرائعة ؟ وهنا لُب القضية . فكيف يمكن لنا أن نرتقى بوعى المواطن المصرى ليدرك إدراكًا حقيقيًا هذه الإنجازات الرائعة فى حضارته القديمة على المستويين المادى والأخلاقى ؟

لا شك فى أن المناهج التعليمية والتربية الوطنية والتوعية الإعلامية تتحمل جميعها مسئولية الارتقاء بوعى المواطن وجعله يشعر بالفخر والاعتزاز برصيد هذه الحضارة الخالدة ويستعيد الثقة بنفسه وبقدراته ، الأمر الذى يدفعه إلى الاقتداء بها والسير على منوالها .

وهذا يعنى أنه لا يجوز لنا أن نكتفى بالوقوف عند الأطلال قانعين باجترار ذكريات عزيزة علينا . فهذا هو موقف الكسالى الذين لا يريدون أن يفعلوا شيئًا مكتفين بترديد القول : أفلا ترون كيف كان آباؤنا وأجدادنا ؟ وهؤلاء وأمثالهم هم الذين عناهم جمال الدين الأفغانى عندما قال : لقد كان آباؤكم وأجدادكم رجالاً ،

ولكن لا يليق بكم أن تتذكروا مفاخرهم إلا أن تفعلوا فعلهم . بمعنى أن نسير على نفس الدرب ونبدع كما أبدعوا .

ولا يتعارض ما ورثناه من حضارتنا القديمة من قيم نبيلة مع ما ورثناه من قيم عظيمة من حضارتنا الإسلامية . فالقيم الإنسانية لا تتعارض ولا تتناقض وإنما تتكامل . ولنا فى هذا الصدد أسوة حسنة فى النبى عليه الصلاة والسلام الذى أثنى على بعض القيم النبيلة التى كانت لدى العرب فى عصر الجاهلية ومن بينها نصرة الضعيف والمظلوم التى تم الاتفاق عليها فى حلف الفضول وقال فى ذلك : « لو دعيت إلى مثله فى الإسلام لأجبت »[1] .

إن التراث الإنسانى أخذ وعطاء ، ولا توجد أمة تبدأ من الصفر ولكنها تتفاعل مع مواريثها أولاً ، فإذا لم يكن لها نصيب من ذلك التفتت إلى مواريث غيرها ، وليس فى هذا بأس على الإطلاق .

وقد قرر فيلسوفنا العظيم ابن رشد أن الاطلاع على ما لدى الآخرين واجب شرعًا ، وأشار إلى أن ما جاء فيه إن كان موافقًا للحق أخذنا به وسررنا به وشكرناهم عليه ، وإن كان غير ذلك لم نأخذ به ونبهنا عليه وعذرناهم .

إنها دعوة إلى عودة الوعى بحضارتنا المصرية القديمة والإسلامية أيضًا لنأخذ منهما الدروس والعبر والقدوة والشعور بالمسئولية لنستكمل المسيرة ونواصل طريق التقدم والارتقاء بعد توقف طال إلى الحد الذى بدأنا فيه ننسى مواريثنا الحضارية . وهذه تذكرة لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

* * *

(١) رواه البيهقى فى سننه . ونصه : « لقد شاهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت » .

obeikandl.com

عودة الوعى الحضارى[1]

لقد كانت ليلة الخامس والعشرين من شهر أغسطس ٢٠٠٦م وصباح اليوم نفسه من اللحظات المشهودة فى تاريخ مصر الحديث ، حيث شهدت شوارع العاصمة المصرية رحلة ملكية نادرة الحدوث ، وخرج الشعب ليحيى ملك مصر العظيم رمسيس الثانى الذى حكم البلاد قبل ثلاثة آلاف عام ، وتجاوب الملك مع الشعب ، فلم يسرع الخطى ، بل سار موكبه المهيب فى تؤدة ووقار يليقان بمواكب الملوك العظام الذين يحظون بحب غامر فى أعماق الشعب العظيم ، شعب مصر الرائد فى الحضارة والتاريخ .

لقد كانت مناسبة غالية استعاد فيها أبناء مصر فى ذاكرتهم أمجاد حضارتهم العريقة وتاريخهم المجيد ، وذكرتهم بأنهم من سلالة بناة تلك الحضارة العريقة ، وأحفاد بناة الأهرام والفنانين العظام الذين سجلوا مآثر هذه الحضارة فى معابد وتماثيل ورسوم ونقوش لا تزال خالدة وباقية على مدى آلاف السنين .

ومن حق شعب مصر أن يفخر بحضارته ويعتز بملوكها وعلمائها وفنانيها وعطائها الحضارى الخالد .

ولكن الذى أود أن أؤكد عليه فى هذا الصدد هو أهمية عودة الوعى بهذه الحضارة لدى المواطنين وضرورة ترسيخ هذا الوعى فى نفوس وعقول كل المصريين . فليس الأمر مجرد مناسبة عابرة خرج فيها عشرات الآلاف ، من أبناء مصر لتحية ملكهم العظيم رمسيس الثانى ، وتابع فيها مئات الآلاف بل الملايين الموكب الملكى على شاشات التليفزيون الذى أحسن صنعًا حين واصل على مدى أكثر من عشر ساعات بث وقائع هذه الرحلة المهيبة .

---

(١) نشر بصحيفة أخبار اليوم فى ٩/ ٩/ ٢٠٠٦ .

إن الأمر يحمل فى طياته دلالة بالغة الأهمية عميقة الأثر ، ولا يجوز أن تمر هذه المناسبة مرور الكرام ، ويكون مصيرها فى زوايا النسيان . ولا أعدو قول الحق إذا قلت إن البعد الأهم فى هذه المناسبة التاريخية بعد مصيرى فى حياة مصر كلها ومستقبلها .

فليس هناك من شك فى أنها حرَّكت فى نفوس المصريين ما يمكن أن نطلق عليه بذور عودة الروح الحضارية . وهذه البذور فى حاجة إلى من يتعهدها بالرعاية والعناية حتى تثمر الثمرة المرجوة بالخروج من مرحلة اللاوعى إلى الوعى الحقيقى المحرك للطاقات لدى أجيال مصر ، مستنهضًا هممهم ، شاحذًا لعزائمهم ، مفجرًا لمواهبهم وباعثًا لقدراتهم للنهوض ببلادهم حتى يكونوا جديرين بالانتساب إلى هذه الحضارة المصرية الخالدة .

ويحضرنى فى هذا المقام حوار دار بينى وبين صديق ألمانى مبهور بالحضارة المصرية إلى درجة تفوق الوصف . فقد قال هذا الصديق متسائلاً : ماذا كنا نحن حينما كان هؤلاء يبنون هذه الحضارة العظيمة ؟ وأجاب هو نفسه عن هذا التساؤل قائلاً : لقد كنا حينذاك مازلنا نتحرك ونقفز فوق الأشجار ، ويقصد أنهم كانوا لا يزالون فى مرحلة ما قبل الحضارة . ثم وجه لى سؤاله المهم : هل هناك وعى حقيقى لدى شعب مصر بهذه الحضارة العريقة ؟

وتلك هى القضية المهمة ذات البعد المصيرى الذى أشرنا إليه . إن من حق شعب مصر أن يتعرف على حضارته على نحو يحرك طاقاته ويدفعه إلى البناء والتعمير بثقة واعتزاز مستعيدًا هذه الأمجاد . فهل نعمل حقًّا من أجل عودة الوعى بذلك ؟

إن مناهج التاريخ المدرسية لا تلبى هذا الطموح ، والبرامج الإعلامية - وبخاصة التليفزيون - لا تحفل بذلك كثيرًا ولا تضعه فى قائمة أولوياتها ، وإن فعلت فإن ذلك يأتى فى مناسبات عابرة . فالمواطن العادى ليس لديه وعى بأهمية هذه الحضارة ، لقد تعود على رؤية الأهرامات وأبى الهول وغيرهما من آثار مصرية قديمة كما تعود على المرور بجوار المتحف المصرى دون أن يحرك ذلك فى نفسه شيئًا ذا بال ،

وكأنما هذه الآثار أمر يخص الأجانب السائحين ، وهذا يعنى أن هذه الحضارة لم يتولد عنها فى وعى المواطنين ثقافة توجه السلوك وتحرك العقول . فهل بُعد المسافة الزمنية وتداول الحضارات على أرض مصر قد أنسى شعبها حضارته المصرية القديمة ؟

إن الإسلام عندما دخل مصر منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنًا من الزمان وجد هذه الآثار الخالدة فلم يمسها بسوء لأنها شاهدة على قدرة الإنسان المستمدة من قدرة الله . والقرآن نفسه يطلب من البشر التعرف على حضارات وتاريخ السابقين واستخلاص الدروس والعبر منها فى مسيرتهم الحياتية .

وليس صحيحًا أن المسلمين أحرقوا مكتبة الإسكندرية القديمة . فالإسلام كان أحرص الأديان والحضارات على الحفاظ على العلم والعلماء وعلى التراث الحضارى الإنسانى . والثابت علميًا أن هذه المكتبة قد أحرقت قبل دخول الإسلام إلى مصر بحوالى ثلاثة قرون .

لقد كان أمرًا عظيمًا أن يعاد بناء مكتبة الإسكندرية لتذكرنا وتذكر العالم من حولنا بأننا - نحن المصريين - نسير على درب أجدادنا بناة الحضارة العظيمة . والسؤال هو : هل تحقق بإنجاز هذا الحدث العظيم تحريك الوعى الحضارى لدى المواطنين ؟

إننا فى حاجة إلى توظيف إعادة بناء مكتبة الإسكندرية ورحلة الملك رمسيس الثانى من ميدانه فى وسط القاهرة إلى مقره الجديد فى المتحف الكبير ، وما نملكه من آثار رائعة ، لغرس الوعى بحضارتنا القديمة فى النفوس ، فذلك له تأثير بالغ الأهمية فى رفع معنويات المواطنين وتحميسهم للعمل من أجل بناء وطنهم . ولا نشك فى حب المصريين لبلادهم ، ولكن الوعى الحضارى من شأنه أن يترجم هذا الحب إلى العمل والإنتاج . إن أبناء مصر فى حاجة إلى مشروع حضارى يلتفون حوله ويبذلون ما يستطيعون من أجل تحقيقه .

ولقد كان الفن فى الماضى القريب سبَّاقًا إلى التذكير بحضارتنا الخالدة وغرس الوعى الحضارى فى نفوس المواطنين . ولا أظن أن الكثيرين من الأجيال الجديدة

تتذكر كوكب الشرق أم كلثوم وهى تشدو بقصيدة حافظ إبراهيم « مصر تتحدث عن نفسها » وتقول :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبناة الأهرام فى سالف الدهر كفونى الكلام عند التحدى

وتنتهى القصيدة بمناشدة مصر لأبنائها بالعمل بجد ونشاط للنهوض بها :

واستبينوا قصد السبيل وجدوا فالمعالى مخطوبة للمُجِدِّ

إن الساحة الفنية قد امتلأت بدلاً من ذلك بالغث من الكلمات والردىء من الألحان والخليع من الأصوات المستوردة والإسفاف فى الحركات ، فكيف لهذه الأجيال فى خضم هذا الصخب العبثى أن تلتفت إلى حضارتنا الخالدة وتتعرف على مآثرنا العريقة ، وتعى قيمة إرثنا الحضارى الذى ليس له نظير ؟

إن شعب مصر لا يزال يحتفظ بالجينات الإبداعية الخلاقة التى ورثها عن أجداده العظام ، ولكنها للأسف فى حالة كُمُون ، وما نفعله بأجيالنا على مستويات كثيرة يساعد على زيادة كُمونها لا على تنشيطها .

ولكن الأمل لا يزال يداعب الأجفان المرهقة فى تغيير ثقافتنا الجامدة الرتيبة إلى ثقافة خلاقة ، تعيد إلينا الوعى بحضارتنا العظيمة ، وتعيد الروح التى غرستها هذه الحضارة إلى أجيالنا الجديدة ، وتقضى على شعور اللامبالاة و « الأنامالية » السائد .

إن ما رواه لى الصديق الألمانى يجعلنى أذكِّر بالتجربة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية . لقد تم تدمير البلاد فى هذه الحرب تدميرًا يكاد يكون كليًّا . ولكن الشعب الألمانى رفض أن يستسلم لما حل به من دمار ، وكان التحدى الكبير . وفى فترة زمنية قصيرة حقق ما يعرف بالمعجزة الاقتصادية ، وعادت ألمانيا أكثر قوة وأكثر شموخًا بسواعد وعقول أبنائها الذين رفضوا الهزيمة فخلقوا منها نصرًا جعل منهم أقوى دولة فى أوروبا المعاصرة . إن التذكير بأمجادنا الخالدة مهم . لكن الأهم من ذلك ضرورة استعادة الوعى بهذه الأمجاد واستحضارها دائمًا أمامنا لتكون نبراسًا يضىء لنا طريقنا ويدفعنا إلى مواصلة السير على الدرب ، ومن سار على الدرب وصل .

* * *

قيمة الانتماء

من بين القيم العديدة التى نتمنى أن نجد لها مكانًا بارزًا فى حياتنا الخاصة والعامة قيمة الانتماء . والانتماء يعنى الانتساب المقترن بالولاء والتقدير لمكان معين أو لجهة معينة أو لشخص من الأشخاص أو لمؤسسة لها دور مهم فى حياتنا . فهناك - مثلاً - الانتماء للوطن ، والانتماء للمؤسسة التى يعمل فيها المرء ، والانتماء لمهنة من المهن ، والانتماء للأسرة ، والانتماء لعقيدة من العقائد أو فكرة من الأفكار . ومن أجل ذلك نجد أصحاب كل حرفة يشكِّلون فيما بينهم نقابة أو رابطة تربط بينهم ينتمون إليها ويحرصون عليها ويشعرون بالولاء لها .

ومن الواضح أن الانتماء ينبنى على أساس أن الجهة التى أنتمى إليها قد أسدت لى صنيعًا ، وأنى مدين لها بالفضل والامتنان ، وأرى من واجبى أن أحفظ لها هذا الجميل وأردَّ لها هذا الدَّين . وكمثال على ذلك ما نشعر به من انتماء وولاء للوطن . فالوطن له فى القلوب منزلة عظيمة ومكانة فريدة . فهو المكان الذى ولدنا فيه وعشنا على أرضه ونعمنا بخيره وتنفَّسنا هواءه ، وهو الذى يحمل أغلى ذكرياتنا فى طفولتنا وشبابنا وكهولتنا وحتى آخر لحظة فى حياتنا ، ولا نرضى به بديلاً مهما كانت الأحوال ومهما تعرضنا من أجله لمحن وأزمات . وهذا ما دعا أمير الشعراء أحمد شوقى إلى القول :

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام

ومن منطلق هذا الشعور الغامر بالحب والإعزاز الذى يشعر به كل مواطن نحو وطنه كان قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - عندما هاجر من مكة إلى

المدينة مخاطبًا وطنه العزيز مكة : « **والله إنك أحب أرض الله إلى نفسى ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت** »[1] .

وذلك على الرغم مما تعرَّض له فى وطنه مكة من ألوان الإيذاء والغدر والعدوان على يد مواطنيه المكيين الذين عفا عنهم جميعًا عندما عاد مرة أخرى إلى وطنه فاتحًا منتصرًا .

والشعور بالانتماء للوطن والولاء هو الذى يجعل المواطنين يهبُّون للدفاع عنه ضد أى خطر يهدده ، ويبذلون الدماء والأرواح فداء له وذودًا عن عزته وكرامته .

إن قيمة الانتماء للوطن - إذن - ليست مجرد كلمة تقال أو أغنية حماسية نرددها فى المناسبات ، وإنما هى فى حاجة مستمرة إلى ترجمة حقيقية لعمل ملموس يرفع من شأن الوطن ويُعلى من مكانته فى السلم وفى الحرب على السواء . ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن قيمة الانتماء للوطن فإن ذلك يتطلب منا أن نبرهن دائمًا على هذا الانتماء بأدلة حقيقية . فإذا كان انتمائى للوطن يتطلب منى أن أحافظ عليه وأحميه من كل عدوان خارجى أو اعتداء على أرضه وسمائه ، فإننى مطالب بنفس القدر أن أحمى أرض هذا الوطن وسماءه من التلوُّث بأى شكل من الأشكال ، حتى ينعم المواطنون فيه ببيئة نظيفة .

وهذا يتطلب منا أن نربِّى أبناءنا وبناتنا على الحرص على نظافة شوارعنا فى مدننا وقرانا ، ونعوّدهم على النظام والانضباط فى البيت وفى العمل وفى المدرسة ...إلخ ، ونغرس فى نفوسهم حب العلم والاستزادة منه والنبوغ فيه ، وننمِّى فيهم حب العمل من أجل خير الوطن والمواطنين ، وتقديم المساعدة للمحتاجين ، وحماية ممتلكات هذا الوطن وثرواته من أى عبث أو إفساد ، والضرب بشدة على يد كل من تسوّل له نفسه أن يعبث بشىء من مقدَّرات هذا الوطن ، كما ينبغى أن نحرص على سمعة الوطن وكرامته وأمنه واستقراره ، وعلى حماية المال العام ، ونظافة وسلامة كل المرافق العامة فى الدولة بوصفها ممتلكات للمواطنين

(١) رواه أحمد فى مسنده ، وأبو داود فى سننه .

جميعًا ، وذلك كله ما هو إلا تعبير عن الانتماء الحقيقى للوطن ، وترجمة صادقة للولاء والحب الذى تكنُّه القلوب للوطن .

ومن ذلك يتضح أن قيمة الانتماء للوطن قيمة شاملة لكل ما يتعلق بهذا الوطن من قريب أو من بعيد ، وأنها تشمل كل ما يمكن أن يتصوَّره المرء من جهود تُبذل لتقدم الوطن والمواطنين حتى تظل رايته خفَّاقة عالية تمثل شموخ الوطن وعزَّة المواطنين .

وما يقال عن قيمة الانتماء للوطن يقال عن الانتماء للإنسانية بصفة عامة ، والانتماء للأسرة ، وللمهنة، وللعقيدة، وللفكرة التى يقتنع بها الإنسان ، وللمدرسة، وللجامعة ، وللمؤسسة التى يعمل بها المرء .

وكل هذه الانتماءات والولاءات تصبُّ فى النهاية فى نهر الانتماء للوطن فتزيده تدفقًا للخير والتقدم والازدهار الذى يعود على الجميع بالحياة الحرة الكريمة والسعادة الغامرة والخير العميم . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

وفى ظل الظروف الراهنة التى تعيشها مصرنا العزيزة ، والتحولات الديمقراطية غير المسبوقة ، واللحظات الفارقة فى تاريخها الحديث ، يتطلب الأمر منا بذل أقصى ما فى وسعنا من جهد من أجل الإسهام الإيجابى فى تشكيل مستقبل هذا الوطن الذى ننتمى إليه . فالانتماء قيمة إيجابية تدل على الفعل وتدفع إلى المشاركة وتدعو إلى المبادرة ، وهى فى الوقت نفسه مسئولية أخلاقية . أما السلبية وعدم الاكتراث والبعد عن المشاركة من جانب المواطنين فى تشكيل مستقبل وطنهم فإنها مواقف لا تتفق بحال من الأحوال مع الانتماء وما يفرضه من التزامات على كل فرد فى أى موقع من المواقع .

وليس من المعقول أو المقبول أن نظل - على سبيل المثال - جالسين فى بيوتنا نتفرج على ما يحدث فى الوطن من تطورات ونكتفى بمقاعد المتفرجين كأننا نشاهد إحدى المسرحيات ، نمتعض إذا شاهدنا مشهدًا لا يعجبنا ، وتتهلل أساريرنا عندما

نشاهد مشهدًا آخر يمتعنا . إن الأمر جد خطير ولا يجوز عقلاً ولا شرعًا أن نكون متفرجين ، بل واجبنا أن نكون فاعلين مؤثرين محركين للأحداث .

ونحن على يقين من أن كل مواطن فى مصر يحب وطنه ويتمنى له أن يكون أفضل الأوطان فى العالم . ولكن الأمر ليس مجرد أمنيات . فنيل المطالب لا يأتى بالتمنى ولكن بالعمل الجاد الدءوب . ومن هنا فإننا نكون مقصرين فى حق بلادنا ومفرطين فى انتمائنا لهذا الوطن إذا لم تكن لنا مشاركة فعالة فى صنع مستقبلنا ومستقبل أجيالنا القادمة .

إن عزوف أكثر من ٧٥٪ ممن لهم حق التصويت من أبناء مصر - الذين لا نشكك إطلاقًا فى حبهم لبلادهم - عن المشاركة فى الإدلاء بأصواتهم فى صناديق الانتخابات يعبر - للأسف الشديد - عن انتماء منقوص ، ولا أكون مجاوزًا للحقيقة إذا قلت إنه يعد تفريطًا فى حق الوطن . ولا شك فى أن هناك أسبابًا عديدة تراكمت على مدى عقود طويلة كانت وراء الميل إلى هذا العزوف ، ولكن الظروف قد تغيرت ولم يعد هناك مبرر لهذا العزوف .

ونحن اليوم مقبلون على مرحلة فاصلة فى تاريخ أمتنا . وبلادنا فى أشد الحاجة الآن لتكاتف جميع المواطنين للوقوف صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص لصنع مستقبل مصر .

ولا شك فى أن مناخ الحرية الذى تشهده بلادنا قد أتاح الفرصة أمام كل مواطن ليعبر بصدق عما يريده لرفعة وطنه وتقدمه وازدهاره . ولا يجوز فى ظل هذه الظروف أن نتخلف عن المشاركة فى رسم الصورة الجديدة لوطننا ، ولا يجوز لأى مواطن من عامة الشعب أو من علية القوم أن يعتقد أن رأيه لن يلتفت إليه أو أنه لن يكون مؤثرًا فى صنع الأحداث . فالأمر لا يهم فئة معينة أو طائفة خاصة وإنما يهمنا جميعًا - نحن المصريين - رجالاً ونساءً ، شيبًا وشبانًا . وهناك فرق كبير بين أن نصنع نحن الأحداث أو أن نتركها تفاجئنا بما لا نريده أو نتمناه لبلادنا .

إننا مهما اختلفنا فى وجهات نظرنا لا ينبغى بأى حال من الأحوال أن يكون ذلك مبررًا لتقاعسنا عن أداء واجبنا نحو وطننا ، كما لا يجوز أن يكون ذلك داعيًا لأن نختلف على الهدف الأسمى وهو عزة هذا الوطن ورفعة شأنه والارتقاء به فى جميع المجالات .

إن مصر صاحبة التاريخ العريق والتى قدمت للبشرية الكثير من العطاء فى جميع المجالات الحضارية تقف اليوم فى مفترق طرق ، وتنادى أبناءها جميعًا مستنهضة للعزائم وشاحذة للهمم ومحركة للإرادات للحفاظ على عطائها الحضارى وتراثها الإنسانى وقيمها الغالية وتقاليدها الراقية . وهذا كله لن يتأتى إلا بسواعد وعقول أبنائها الحريصين على التعبير عن انتمائهم وولائهم لهذا الوطن والمستعدين لبذل كل غالٍ ورخيص فى سبيل عزته ورفعته .

إن مصر - التى هى فى خاطرنا جميعًا والتى يجرى حبها فى دمائنا - لها حقوق على كل منا . ولا يجوز بحال من الأحوال أن يتأخر مواطن واحد عن أداء الضريبة المستحقة عليه لهذا الوطن . فكل حق يقابله واجب . وواجبنا فى المرحلة الحالية أن نحمى هذا الوطن من كل ما يحيط به من أخطار داخلية كانت أم خارجية .

ونحن جميعًا نعلم أن مصر مستهدفة من جهات عديدة ، ولا يراد لها أن تلعب دورها الحضارى الريادى فى هذه المنطقة من العالم ، وانتمائنا لمصر يحتم علينا أن نقف صامدين نرد عنها كيد الكائدين وعبث العابثين ، وأن نسير بها نحو مستقبل مشرق قد بزغت شمسه بالفعل وبدأت نسائم صبحه تنعش النفوس بالآمال الكبار . إنها دعوة لكل مصرى ومصرية أن يترجم انتماءه لوطنه إلى أفعال تدفع به إلى طريق التقدم والازدهار والأمن والأمان والاستقرار ليأخذ مكانه اللائق به بين الأمم ويمارس دوره الفاعل فى دعم واستقرار عالمنا المعاصر .

* * *

obeikandl.com

أهم الأعمال العلمية للمؤلف

أولا: مؤلفات عربية :

١ - تمهيد للفلسفة (الطبعة الخامسة) - دار المعارف بالقاهرة .

٢ - المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت (الطبعة الرابعة) - دار المعارف بالقاهرة .

٣ - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى - دار المعارف بالقاهرة . ومكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٨ .

٤ - الدين والفلسفة والتنوير (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة .

٥ - الدين والحضارة (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة .

٦ - حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك (سلسلة اقرأ) - دار المعارف بالقاهرة ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومكتبة الشروق الدولية .

٧ - دراسات فى الفلسفة الحديثة - دار الفكر العربى .

٨ - مدخل إلى الفكر الفلسفى (مترجم عن الألمانية) - دار الفكر العربى .

٩ - مقدمة فى علم الأخلاق - دار الفكر العربى .

١٠ - مقدمة فى الفلسفة الإسلامية - دار الفكر العربى .

١١ - الإسلام فى مرآة الفكر الغربى - دار الفكر العربى .

١٢ - الإسلام فى عصر العولمة - مكتبة الشروق الدولية .

١٣ - الحضارة فريضة إسلامية - مكتبة الشروق الدولية .

١٤ - الإسلام وقضايا الحوار - مكتبة الشروق الدولية ، ومكتبة الأسرة ٢٠٠٧م .

١٥ - الإسلام والغرب - مكتبة الشروق الدولية .

١٦ - هموم الأمة الإسلامية - دار الرشاد ومكتبة الأسرة .

١٧ - الإنسان والقيم فى التصور الإسلامى - دار الرشاد ومكتبة الأسرة .

١٨ - ثلاث رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى (تحقيق ودراسة) مكتبة الأزهر .

١٩ - الإسلام فى تصورات الغرب - مكتبة وهبة .

٢٠ - الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا (محاضرة) - مكتبة وهبة .

٢١ - الإسلام وقضايا العصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٢ - من أعلام الفكر الإسلامى الحديث - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٣ - الإسلام وقضايا الإنسان- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٤ - مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٥ - مفاتيح الحضارة وتحديات العصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٦ - الفكر الدينى وقضايا الأمة الإسلامية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٧ - المسلمون فى مفترق الطرق - دار الرشاد - القاهرة ٢٠٠٧م .

٢٨ - الفكر الدينى وقضايا العصر - دار الرشاد - القاهرة ٢٠٠٨م .

ثانيًا: مؤلفات باللغات الأجنبية :

١ - فى اللغة الألمانية :

أربعة كتب هى : « فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت » ، «مدخل إلى الإسلام » ، « قضايا حول الإسلام » ، « الإسلام وقضايا الحوار » . وذلك بالإضافة إلى اثنى عشر بحثًا منشورة فى ألمانيا والنمسا ، وحوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

٢ - فى اللغة الإنجليزية :

- ترجمة لكتاب : « الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك » ، وكتاب : « مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد » ، وحوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

- ثلاثة بحوث مترجمة إلى الإنجليزية منشورة فى القاهرة وبرمنجهام (إنجلترا) ونيودلهى (الهند) وهى على التوالى :

- « دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى » ، « الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب » ، « السلام فى نظر الإسلام » . وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ومكتبة الشروق الدولية البحوث الثلاثة الأخيرة بالإنجليزية فى كتاب بعنوان :

«On Philosophy Culture and Peace in Islam».

٣ - فى اللغة الفرنسية :

- ترجمة لكتاب : « حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك » .
- « الحوار الإسلامى المسيحى » .
- حوار موضوعى مع قداسة بابا الفاتيكان .

٤ - فى اللغة القازاقية :

- ترجمة لكتاب : « حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك » .
- « الإسلام وقضايا الحوار » .

٥ - فى اللغات الروسية والتايلاندية والإسبانية والإندونيسية :

- ترجمة لكتاب : « حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك » .

٦ - فى اللغتين التركية والإندونيسية :

- ترجمة لكتاب : « الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى » .

٧ - فى اللغة البوسنية :

- ترجمة لكتاب : « فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت » .

٨ - فى لغات أخرى :

وبالإضافة إلى ذلك تمت ترجمة بعض البحوث التى ألقيت فى بعض المؤتمرات فى أوروبا إلى الفرنسية والإسبانية والإيطالية والأوردية ، وهى على التوالى : « قضية

الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة » ، « إسهام الإسلام فى صنع ثقافة السلام » ، « التوحيد والنزاع فى نظر الإسلام » ، « السلام فى نظر الإسلام » .

ثالثاً: مساهمات فى أعمال علمية أخرى :

- ترجمة كتاب : بوخينسكى : « مدخل إلى الفكر الفلسفى » من الألمانية إلى العربية (دار الفكر العربى) .
- الاشتراك فى ترجمة كتاب بروكلمان : « تاريخ الأدب العربى » إلى اللغة العربية .
- مراجعة على النص الألمانى لترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام للجزء الخاص بالعالم الشرقى من كتاب : « فلسفة التاريخ لهيجل » دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٦ .

* * *

openkandl.com